كتاب

التذكرة في الاصول الخمسة

لقاضي القضاة الصاحب اسماعيل بن عباد

٣٢٦ - ٣٨٥ هـ

الصاحب بن عباد

سبق لنا في تقديم رسالة « عنوان المعارف » للصاحب بن عباد في المجموعة الأولى من « نفائس المخطوطات » أن أشرنا الى كون مؤلفها العظيم من كبار علماء التوحيد والأصول والفرق في عصره ، والى ما كتبه في هذا الموضوع من كتب متعددة قيمة ككتاب « اسماء الله وصفاته[1] » وكتاب « نهج السبيل في الأصول » وكتاب « التذكرة » وغير ذلك مما ذكر في كتب التاريخ .

كما وقد أشرنا هناك أيضاً الى موجز من النصوص التاريخية التي تشرح عظمة هذا الرجل وسعة باعه في جميع ميادين العلم وفروع الأدب ، فلا نكرر ولا نعيد .

ولكن الذي تجب الاشارة اليه في موقفنا هذا هو ما يلحظ في هذه الرسالة من جري المؤلف في تعداد الأصول على اسلوب المعتزلة ومن كان على شاكلتهم، حيث يجعل (المنزلة بين المنزلتين) و (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في عداد الأصول الخمسة ، في حين انها خارجة عنها في رأي الشيعة الامامية .

فهل كان الصاحب معتزلياً في عقيدته أم شيعياً إمامياً ؟ .

ذلك ما اختلف فيه الأعلام من علماء الرجال والتاريخ كل الاختلاف ، وتعددت فيه أقوالهم على أنحاء من الرأي والاستنتاج .

فالشيخ المفيد والسيد المرتضى ـ رضي الله عنهما ـ يريان اعتزال الصاحب على وجه القطع واليقين .

---

(١) وقد وفقنا الله لنشرها في المجموعة الأولى من « نفائس المخطوطات » بأسم « [illegible] ».

ويذهب ياقوت الحموي وابن خلكان في كتابيهما الشهيرين ـ نقلاً عن أحد كتب الصاحب ـ الى كونه مفضّلاً لعلي (ع) على غيره ، ومصححاً ـ في الوقت نفسه ـ إمامة من تقدمه .

ويفنده السيد رضي الدين علي بن طاووس من المعتزلة ، معتمداً في ذلك على تصريحي الشيخ المفيد والسيد المرتضى ـ وإن ظهر من تصانيفه ما يوافق الشيعة في الاعتقاد ـ [1] .

وهناك طائفة اخرى من الأعلام تذهب الى تشيعه خلال احاديثها عنه ، حتى روي عن المجلسي الأول قوله :

« انه من أفقه فقهاء اصحابنا » .

وحتى صرح القاضي الشهيد نورالله بكونه من وزراء الشيعة .

وعدّه ابن شهراشوب من شعراء أهل البيت .

وأيدّهم في ذلك الشيخ الشهيد زين الدين .

وهكذا نجد الاختلاف والتضارب في ذلك كثيراً كبيراً يحتاج الى مزيد من التدقيق والتحقيق .

وحيث ان المجال في هذا الكتاب لا يتسع لشرح الأمر وتفصيله ، فلنتركه بمجموعه لكتابنا الذي افردناه في الصاحب ، ودرسنا فيه كل نواحيه دراسة فنية كاملة .

والواقع اننا لم نقصد من هذا البحث محض النسبة اللفظية في الموضوع ،

---

(١) ولتأييد هذا الرأي راجع ما كتبه الاستاذان الدكتوران عبدالوهاب عزام وشوقي ضيف في مقدمة « رسائل الصاحب بن عباد » واستدلالهما على اعتزاله بما يظهر من بعض رسائله .

فانه ـ لهذا الغرض ـ بحث بلا طائل ، انما المهم في الأمر هو خدمة الناحية العلمية واداء الأمانة التاريخية فقط ، ليكون الحكم والمناقشة في آرائه العقائدية مبنية على اساس متين من فهم اتجاهه وتفكيره ، ومعرفة مقدار حرية رأيه وسعة افقه في هذه المواضيع الدقيقة الهامة .

ومهما يكن الأمر . فها هو احد كتب الصاحب الكلامية أقدمه اليك ، مفتوحاً بين يديك ، فاقرأه بامعان ، وادرسه بتأمل ، ثم استخلص لنفسك رأياً في عقيدة المؤلف ومذهبه في الأصول .

والنسخة التي طبعت عليها الرسالة محفوظة في مكتبتي الخاصة ، وهي بدورها منتسخة على نسخة قديمة يرجع تاريخها الى عام (٨١٣) من الهجرة ، وقد قمت بمقارنتها اخيراً بنسخة اخرى نقلت عن الخزانة الرضوية في ايران فصححتها عليها تصحيحاً دقيقاً متقنا .

والى هنا نقف بالقلم ليمتع القارىء الكريم فكره و بصره بهذا الأثر العلمي النفيس :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل ، وصلاته على النبي وخيرة الأهل ، عليهم السلام .

الأصول الخمسة : (التوحيد) و (العدل) و (الصدق في الوعد والوعيد) و (المنزلة بين المنزلتين) و (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

فصّ المقالة النظر ، لأن بالتدبر والتميز يعرف الصحيح من السقيم ، قال الله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن)[1] وقال عزوجل : (فاعتبروا يا اولي الابصار)[2] .

والتقليد فاسد ، لأنه يوجب ان يعذر الله جميع المبطلين الذين قلدوا آباءهم الظالمين ، ألا ترى ان الله تعالى ذمّ الكافرين بقوله تعالى : (انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم)[3] .

والعالم محدث ، كائن بعد أن لم يكن ، لأن جميعه فيه اثر الصنعة ، من طول وقصر ، وصغر وكبر ، وتربيع واستدارة ، وزيادة ونقصان ، وتغيّر من حال الى حال ، واستبدال ليل بنهار ، كما قال تعالى : (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)[4] .

---

(١) النساء (٨٤)

(٢) الحشر

(٣) الزخرف (٢٢ ـ ٢٣)

(٤) آل عمران (١٨٧)

والله تعالى خالق ذلك ومنشؤه ، ومصوره ومبدؤه ، لأن الصنع لا بدّ له من صانع ، كالكتاب لا بدّ له من كاتب ، والبناء لا بدّ له من بانٍ ، قال الله تعالى : (خلق السموات والأرض بالحق . صوركم فأحسن صوركم)[١] .

وهو تعالى واحد ، لا قديم معه ، ولا إله سواه ، إذ لو جاز اثبات اثنين لما امتنع من اثبات ثالث ورابع الى ما لا نهاية له ، ولجاز ان يتوهم كيف يختلفان ويتغالبان ، وفي تجويز الغلبة لأحدهما اثبات العجز ، والاله لا يكون عاجزاً ، كما قال عز اسمه : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[٢] .

وهو عزوجل قادر ، لأن من ليس بقادر لا يصح أن يفعل .

وهو عالم كما قال عزوجل : (وكان الله بكل شيء عليماً)[٣] .

وهي حيّ ، لأن من ليس بحي لا يصح ان يكون عالماً قادراً ، كما قال الله عزوجل : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[٤] .

وهو تعالى عالم بنفسه لا يحتاج الى علم يعلم به ، قادر بنفسه لا يحتاج الى قدرة بها يقدر ، وحي بنفسه لا يحتاج الى حياة بها يحيي ، ولم يزل كذلك ولا يزال كذلك ، إذ لو اثبتنا معه فيما لم يزل علماً وحياة وقدرة لكنّا قد اثبتنا اكثر من قديم واحد ، والله تعالى كما وصف نفسه احد صمد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد)[٥] .

---

(١) التغابن ـ ٣ ـ

(٢) الانبياء ـ ٢٢ ـ

(٣)

(٤) البقرة ـ ٢٥٦ ـ

(٥) الاخلاص ـ ٣ ، ٤ ـ

ولا يشبه أحداً من خلقه ، إذ لو اشبهه لكان في الحاجة والضعف والافتقار الى صانع مثله (ليس كمثله شيء)[١] .

ولا يجوز ان يكون جسماً ، ولا جسداً ، ولا شخصاً ، ولا ذا جوارح اعضاء وجوانح ، فيدل الطول والعرض والعمق والتأليف على كونه محدثاً .

ولا يجوز ان يكون متحركاً او ساكناً ، او صاعداً او نازلاً ، او حالاً في محل قاعداً او قائماً ، فتدل هذه الصفات على كونه متغيراً متنقلاً مخلوقاً ، كما دلّ ابراهيم على ان الشمس والقمر والنجوم ليست بالهة لما تغيرت وظهرت واستترت ، وتحركت وسكنت ، قال الله عزوجل : (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً ـ الى قوله ـ وما انا من المشركين)[٢] .

والقرآن كلام الله ووحيه وتنزيله ، تكلم لا بآلة كما يتكلم المخلوقون ، بل بكلام احدثه وانشأه وخلقه (ومعنى خلقه : قدرّه) إذ لو كان الكلام من القرآن وغيره قديماً معه لدل ذلك على القول بالتثنية ، والخروج عن جملة التوحيد ، وقد اجمع المسلمون على أن لا قديم إلا الله ، وقد اخبر الله ان القرآن محدث فقال : (انّا نحن نزلنا الذكر)[٣] ثم قال تعالى : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)[٤] .

وليس يصح على الله تعالى درك الأبصار ، لا لأنه تعالى حجبنا عن رؤيته ، بل لأنه عز اسمه في ذاته غير مرئي ، كما انه في ذاته غير مشموم ولا مذوق ،

---

(١) الشورى ـ ٩ ـ

(٢) الأنعام ـ ٧٦ـ٧٩ ـ

(٣) الحجر ـ ٩ ـ

(٤) الانبياء ـ ٢ ـ

ولا ملموس ولا مسموع ، ولو رئي بالابصار لكان جسماً او هيئة جسم ، كما انه لو سمع بالآذان لكان كلاماً او صوتاً ، او شم بالآناف لكان رائحة ، او ذيق بالافواه لكان طعماً ، كما قال تعالى لموسى (ع) : لن (تراني)[١] . وكما قال : (لا تدركه الابصار)[٢] .

ولو جاز ان تدركه الابصار في الدنيا ، او تدركه في الآخرة لجاز في قوله تعالى : (لا تأخذه سنة ولا نوم)[٣] وفي قوله تعالى : (لم يكن له شريك)[٤] ان يكون في الدنيا دون الآخرة .

أما قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضره الى ربها ناظرة)[٥] فالقول فيه ما روي عن امير المؤمنين عليه السلام : (انها منتظرة ثواب ربها) كما يقول الفقير : انما انظر الى الله واليك انتظر فضله وفضلك[٦] .

القول في العدل :

ان الله تعالى عدل حكيم كما قال تعالى : (وما ربك بظلام للعبيد)[٧] و (ان الله لا يظلم الناس شيئاً)[٨] خلق العباد والعقلاء جميعاً للطاعة ، إذ ليس بحكيم من

---

(١) الاعراف ـ ١٣٩ ـ

(٢) الانعام ـ ١٠٣ ـ

(٣) البقرة ـ ٢٥٦ ـ

(٤) الاسراء ـ ١١١ ـ

(٥) القيامة ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ

(٦) وقد ذكرنا في رسالة الابانة من المجموعة الأولى ص ١٤ ما ذكره السيد المرتضى في اماليه تعليقاً على هذه الآية الشريفة .

(٧) فصلت ـ ٤٦ ـ

(٨) يونس ـ ٤٥ ـ

انشأ عبيده وقصد في انشائهم ان يعصوه ، كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون)[1] .

وأما قوله تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس)[2] فهذه لام العاقبة ومعناه : ذرأنا وعاقبتهم الى النار كما قال تعالى : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً)[3] وهم انما التقطوه ليكون لهم قرة عين ، فأخبر بما صار عاقبته اليه .

وما كلف أحداً شيئاً من الافعال إلا وازاح علته في قدرته وآلته واستطاعته الفعل قبل الفعل ، كما ان اليد قبل البطش ، والعين قبل النظر ، ولو كانت الاستطاعة مع الفعل لكان تكليف الذي لم يفعل الايمان لا يستطيعه ، وقد كلف بالايمان ، فكان قد كلف ما لا يطيق ـ تعالى الله عن ذلك ـ كما قال تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)[4] .

وافعال العباد وطاعتها ومعاصيها هم يخترعونها ويؤخذون بها ، وكذلك يحمدون على حسنها ، ويذمون على سيئها ، ولو كان الله تعالى خالقها لما جاز ان يثيبهم ويعاقبهم عليها ويأمرهم وينهاهم عنها ، كما انه لما خلق الطول والقصر وسواد الزنج وبياض الروم لم يجز ان يذم على ذلك ولا يعاقب ولا يأمر به ولا ينهى عنه ، كما قال تعالى في تصديق ذلك : (يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب

---

(١) الذاريات ـ ٥٦ ـ

(٢) الاعراف ـ ١٧٨ ـ

(٣) القصص ـ ٧ ـ

(٤) البقرة ـ ٢٨٦ ـ

ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)[١] رداً على المجبرة الذين يزعمون ان معبودهم خالق الزنا ، وفاعل الكذب ، ومخترع القيادة ، ومنشيء السرقة ، وهم يكرهون ان يرموا بذلك ، قال الله عزوجل : (يجعلون لله ما يكرهون)[٢] .

ونقول : الخير والشر من عند الله ، ونريد به الحياة والموت ، والغنى والفقر ، والعافية والسقم ، والخصب والجدب ، فأما القبائح والفضائح فلا تكون من احكم الحكماء .

ونقول : حسناتنا من الله ، ليس بمعنى انه قطعها ، ولكن اعان عليها ، وهدى اليها ، وامر بها ، واراد فعلها ، كما يقول الانسان للعالم الذي اخذ عنه : جميع ما احسنه منك ، كما قال تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[٣] .

ونقول : سيآتنا من الشيطان ، ليس بمعنى انه فعلها ، ولكن وسوس بها وحسنها وزينها ودعا اليها ، كما قال عزوجل : (فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان)[٤] .

ونقول : ان الله عزوجل مريد للطاعات والحسنات ، وكاره للمعاصي والسيئات ، لأن الحكيم يحب الحسن ويكره القبيح ، كما قال رداً على المجبرة الذين يزعمون ان معبودهم يشتم ويشرك ويدعي الصاحبة له والولد : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[٥] . ولا عسر اعسر من الكفر كما قال تعالى : (وما الله

---

(١) آل عمران ـ ٧٢ ـ
(٢) النحل ـ ٦٤ ـ
(٣) الانفال ـ ١٧ ـ
(٤) القصص ـ ١٤ ـ
(٥) البقرة ـ ١٨١ ـ
(٦) المؤمن ـ ٣٣ ـ

يريد ظلماً للعباد)[١] وكما يقول تعالى : (سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا)[٢] وكما قال تعالى في كراهة المعاصي : (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، [٣] وقال تعالى : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً)[٤] .

والله تعالى يريد بأرادة محدثه ، وقال تعالى رداً على المجبرة الذين قالوا لم يزل مريداً : (انما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[٥] و (اذا) يدخل المستقبل ، كما قال تعالى : (اذا السماء انشقت)[٦] .

ونقول : انه تعالى يهدي العقلاء الى الطاعة بمعنى انه اوضح الطريق ، وبين الدليل وحسن الطاعة ، وقدم الاستطاعة ، كما قال تعالى : (واما ثمود فهديناهم فأستحبوا العمى على الهدى)[٧] لأنه اذا لم يهدهم الى ما امرهم به لكان في حكم الظالم لهم ، والله لا يظلم مثقال ذرة .

ونقول : لن يضل احداً من الناس ، يعني عن الدين ، لأن ذلك من فعل الشياطين والفراعنة الذين ذمهم الله بكونهم مضلين ، فقال تعالى : (واضلهم السامري)[٨] وقال تعالى : (واضل فرعون قومه وما هدى)[٩] وقال تعالى : (ولقد اضل منكم جبلا كثيراً)[١٠] .

ونقول : ان الله يهدي ويضل ، بمعنى انه يهدي الذين اهتدوا بالطاعة الى الثواب ، وبمعنى انه يضل عن الثواب انهم يستحقون بفسقهم ، كما قال : وما يضل به إلا الفاسقين)[١١] .

---

(١) المومن ـ ٣٣ ـ
(٢) الانعام ـ ١٤٩ ـ
(٣) التوبة ـ ٦٤ ـ
(٤) الاسراء ـ ٤٠ ـ
(٥) يسن ـ ٨٢ ـ
(٦) الانشقاق ـ ١ ـ
(٧) فصلت ـ ١٦ ـ
(٨) طه ـ ٨٧ ـ
(٩) طه ـ ٨١ ـ
(١٠) يسن ـ ٦٢ ـ
(١١) البقرة ـ ٢٤ ـ

واطفال المشركين في الجنة ، لأن الحكيم لا يؤاخذ احداً بوزر غيره ، قال الله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر اخرى)[١] .

ونقول : ان من اطاع الله في اجتناب الكبائر ، واداء الفرائض، ومات برّاً فهو في الجنة، وكذلك من ارتكب الذنوب صغيرة كانت او كبيرة وختم امره بالتوبة، فأما من قتل النفس، وشرب الخمر، وقطع الطريق، ومات ولم يتب فهو ممن يصلى النار ولا يغيب عنها ، كما قال الله تعالى: (ان الأبرار لفي نعيم، وان الفجار لفي جحيم) [٢] وبين ان الخلف لا يجوز في وعده . يقول تعالى : (لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد ما يُبدّل القول لدي)[٣] (ولن تجد لسنة الله تبديلا) [٤] وقال تعالى « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[٥] وقد بين بقوله عزوجل : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم »[٦] .

ومن ارتكب الكبائر من أهل القبلة فانا لا نطلق عليه الكفر ـ كما زعمت الخوارج ـ إذ لو كان كافراً لما صلي عليه ، ولا ورثه المسلمون ، ولا نقول انه مؤمن ، لان صفة الايمان صفة تشريف وتعظيم . ومرتكب الكبائر مهان ذليل ، ونقول : انه فاسق ، وذلك « منزلة بين المنزلتين » فمحال ان يكون الرجل في حالة مؤمناً وفاسقاً ، وليّاً لله عدواً ، قال الله عزوجل « بئس الاسم الفسوق بعد الايمان »[٧] .

والامر بالمعروف والنهي عن المنكر يجبان بقدر الاستطاعة ، فأن تهيأ تغيير

---

(١) الانعام .. ١٦٤ ـ
(٢) الانفطار ـ ١٦ ـ
(٣) ق ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ
(٤) الاحزاب ـ ٦٢ ـ
(٥) النساء ـ ٥١ ـ
(٦) النساء ـ ٣٥ ـ
(٧) الحجرات ـ ١١ ـ

المنكر بأخف الامور وجب وإلا وجب الارتقاء الى اعظمها متى استطعنا ، قال الله عزوجل : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[١] .

ونبوة نبينا ثابتة بالمعجزات التي صحبته ، والله احكم ان يجعلها على ايدي الكاذبين ، فمنها : القرآن الذي جاء به الى أفصح العرب فعادوه ونابذوه . ولم يمكنهم ان يأتوا بمثله او بعشر سور ، وهو يتلو عليهم ، مع بغضهم له ومحاربتهم اياه ، قال الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله »[٢] وقال تعالى : «قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات»[٣]

هذا . مضافاً الى ما صحبه من تكلم الذراع المشوي له ، وتسبيح الحصا في يده ، ومجيء الشجرة حين دعاها اليه .

وخيرة الناس بعده من اختاره لاخوته علي بن ابي طالب عليه السلام ، لاجتماع الجهاد والعز والعلم والزهد والسابقة فيه ، وهذه الخصال متفرقة في غيره ، قال عزوجل: « والسابقون السابقون اولئك المقربون »[٤] وقال تعالى : «وفضل الله المجاهدين على القاعدين »[٥] وقال تعالى: « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[٦] وقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[٧] وقال تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى »[٨] .

« تمت الرسالة »

---

(١) آل عمران ـ ١٠٠ ـ
(٢) الاسراء ـ ٩٠ ـ
(٣) هود ـ ١٦ ـ
(٤) الواقعة ـ ١٠ ـ ١١ ـ
(٥) النساء ـ ٩٧ ـ
(٦) الزمر ـ ١٢ ـ
(٧) الفاطر ـ ٢٥ ـ
(٨) الشورى ـ ٢٢ ـ